مخطوطُ رحلةِ عبدِ القادر بنِ عُمر المهداوي التواتي إلى الحجِّ عامَ 1232هـ/1817م تقديمٌ ودراسةٌ

The Manuscript of Abd al-Qadir ibn Umar al-Mahdaui al-Tuwati's Journey to Hajj in the Year 1232 AH / 1817 AD: An Introduction and Study

أحمد بوسعيد

مخبر المخطوطات الجزائرية في إفريقيا، الجامعة الإفريقية بأدرار، ahm.boussaid@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2026/03/27 تاريخ القبول: 2026/10/14

ملخص:

لا تزالُ خزائنُ المخطوط ومظانُّه في منطقة توات الجزائرية حُبلى بالمُفيدِ والنادر في فنِّ أدبِ الرّحلات، ولا أدلَّ على ذلك من تجدُّدِ أخبار الكشف والنشر بين الفينة والأخرى. ومخطوطُ رحلةِ الشيخِ عبد القادر بن عُمر المهداوي إلى الحجِّ عامَ 1232هـ/1817م المُقدَّمُ في هذه الورقة أنموذجٌ حيٌّ في هذا المقام، إنَّه مخطوط رحلي جديد يُعضِّد ذخائرَ الرحلات الحجازية الجزائرية والمغاربية المدوَّنة أواخر العهد العثماني، متميّزاً عنها بخصوصية زمانِه، وكذا بأسلوبِ صاحبِه في كتابة هذا النوع من المذكّرات الحجيّة.

تحاول هذه الدراسة أن تستجلي مصدرًا مخطوطًا جديدًا، يُنفَضُ عنه غُبار الحفظ لأول مرة، وفي الوقت ذاتِه تُحاكي من خلال مضمونِه تفاصيلَ سفرِ الجزائريين إلى الحجّ في ذلك العهد، من خلال الإجابة على الإشكال الآتي: ما المستجدُّ في رحلة الشيخ عبد القادر المهداوي التواتي إلى الحجّ، سيرًا وتدوينًا؟

كلمات مفتاحية: المخطوط، المهداوي، توات، الرحلة، الحج.

Abstract:

The manuscript repositories and their holdings in the Tuwat region of Algeria remain rich with valuable and rare works in the art of travel literature, with ongoing discoveries and publications emerging from time to time. The manuscript of Shaykh Abd al-Qadir ibn Umar al-Mahdaui's journey to Hajj in 1232 AH / 1817 AD, presented in this paper, is a vivid example in this context. It is a new travel manuscript that enriches the

collection of Algerian and Maghribi Hijazi travel accounts written during the late Ottoman period, distinguished by the particularity of its time and the author's style in composing this type of Hajj memoir.

This study seeks to bring to light a new manuscript source, dusted off from preservation for the first time, while simultaneously exploring through its content the details of Algerians' travel to Hajj during that era. It does so by addressing the following question: what are the new insights offered by the journey of Shaykh Abd al-Qadir al-mahdaui al-Tuwati to Hajj, both in terms of the travel itself and its documentation?

Keywords: Manuscript; Al-Mahdaui; Touat; Journey; Pilgrimage.

1. مقدمة:

تزخرُ الخزائنُ والمكتبات الجزائرية الخاصّة بالعديد من المخطوطات الأصلية أو المنسوخة في شتَّى العلوم العقلية أو النقلية، ومن المصنَّفات المخطوطة المتميّزة ضمنَها ما شملَ منها أدب الرحلة إلى الحج خصوصًا. حيث أضحَتْ الكتابة في هذا المجال سمةً مميزةً لأعلامِ الجزائر في العهد العثماني (1518 ـ 1830م)، يتسابقون إلى تدوين ملاحظاتهم وأخبارهم، وتقديم نصائحهم في متون تلك المذكرات لإخوانهم العازمين على الذهاب إلى الحجّ أو الرّاغبين فيه.

كما أنَّ من الأهمية بمكان تأصيلَ الأحداث المرتبطة بالسفر إلى الحج وفرزها وتوثيقها، وذلك من خلال الاعتماد على ما دوّنَته كتب الرحلات الحجازية الجزائرية خاصة والمغاربية عامة، واستنباط الإشارات ذات الدلالات التاريخية والاجتماعية والحضارية، التي تزخر بها تلك "المذكِّرات الحجية"، إذْ لا يخفى أنها المصدر الأول والرئيس في كلِّ ما يتعلَّق بمراحل السفر للحج وظروفه في العهد العثماني.

تسعى هذه الورقةُ البحثيةُ إلى أنْ تُزاوجَ بين الأمرين، فتُجلِّيَ مصدرًا مخطوطًا، يُنفضُ عنه غُبار الحفظ لأول مرة، وفي الوقت ذاتِه تُحاكي بمضمونِه تفاصيلَ سفرِ الجزائريين إلى الحج في ذلك العهد. والمقصود هنا هو مخطوط رحلة الشيخ عبد القادر بن عمر المهداوي التواتي، الذي أدّى فريضة الحج عام 1232هـ/1817م، أي قبل سنوات قليلة من انتصاب الاستعمار الفرنسي بالجزائر. ويبرز هذا النص الرحلي بوصفه حلقة مهمّة ضمن سلسلة الرحلة الحجازية الجزائرية، إذ يكتسب قيمته من خصوصية الزمن الذي كتب فيه، ومن أسلوب صاحبه المميّز في تدوين هذا النوع من الأدب. كما أن دراسة هذا المخطوط

تتيح لنا فرصة ثمينة للتعرف على تفاصيل دقيقة تتعلّق بتنظيم رحلات الحج، والأحوال السياسية والاجتماعية التي رافقتها في تلك الفترة، خاصة في إقليم توات وعلاقته بالمراكز الحضارية الكبرى.

تنطلق هذه الدراسة من إشكالية رئيسة تتمثل في السؤال الآتي: ما المستجدّ الذي قدَّمه مخطوط رحلة الشيخ عبد القادر بن عمر المهداوي التواتي إلى الحجّ عام 1232هـ/1817م، سواء من حيث تفاصيل الرحلة ذاتها أو من حيث طريقة توثيقها وأسلوب تدوينها؟ ويتفرّع عن هذا السؤال المحوري عدّة تساؤلات، منها: ما القيمة العلمية والتاريخية لهذا المخطوط مقارنة بالرحلات السابقة والمعاصرة له؟ وما الجوانب الاجتماعية والسياسية التي أبرزَها النصُّ في سياق سفر الجزائريين إلى الحجّ خلال العهد العثماني؟ وكيف تعامل المؤلِّف مع المصادر التي استقى منها مادة رحلته؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، يمكن صياغة الفرضيات التالية: أولًا؛ يُظهِر المخطوطُ الذي بين أيدينا خصوصيةً لافتةً؛ من حيثُ كونُه نموذجًا للرحّالة الجزائريين المنطلقين من منطقة توات الصحراوية الجزائرية، مما يعكس تنوّع التجارب داخل الركب الجزائري. ثانيًا؛ قد يكون اللافت في الرحلة هو الجمع بين النقل عن الرحلات السابقة والإضافة بتسجيل وقائع سياسية واجتماعية معاصرة، بالإضافة إلى التفرّد في رسم بعض المعالم الدينية كالحجرة النبوية الشريفة. ثالثًا؛ يُسهم المخطوط في سدّ ثغرة معرفية تتعلّق بتفاصيل تنظيم الركب الجزائري وعلاقته بالقبائل والأركاب الأخرى على طريق الحجّ في تلك الفترة.

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف، أبرزها: التعامل مع مخطوط جديد لم يسبق نشره أو دراسته، والتعريف بصاحبه وبمنتسبي أسرته العلمية التنلانية وأدوارهم في الحياة الدينية والاجتماعية في إقليم توات. كما تسعى الدراسة إلى تحليل محتوى الرحلة واستخلاص القيم الاجتماعية والثقافية والسياسية التي تضمّنها النص، مثل عادات السفر، وطرق تسيير القوافل، والعلاقات بين الحجاج الجزائريين وغيرهم من الأركاب، إضافة إلى الكشف عن كيفية تعامل الرحالة مع الأحداث الطارئة كتأخّر وصول الركب أو ظروف الأمن على الطريق وما شابَهَا.

اعتمدتْ هذه الورقةُ البحثيةُ على منهجية تجمع بين عدة مقاربات لتحقيق أهدافها؛ فمن خلال المنهج التاريخي تمَّ تتبُّع مسار الرحلة وسياقها الزمني والمكاني، وتحليل الأحداث السياسية

والاجتماعية المرتبطة بها في أواخر العهد العثماني. كما وظِّفتْ الأداتان الوصفية والتحليلية لتفكيك مكوّنات النص الرحلي، واستخراج مضامينه الرئيسة، والتعرّف على مصادر المؤلِّف التي اقتبس منها، ومقارنة رحلته برحلات سابقة له في إطار النّقد الوثائقي. وقد تمّ الاعتماد على المخطوط الأصلي لرحلة الشيخ عبد القادر المهداوي، بالإضافة إلى عدد من المصادر والمراجع التي تناولت الرحلات الحجازية الجزائرية خصوصًا والمغاربية عمومًا، وذلك بهدف تقديم دراسة أكاديمية رصينة تكشف عن قيمة هذا المخطوط وتبرز أهميته في سياق التراث الرحلي المغاربي والإسلامي.

2. اتّجاهاتُ كتابة الرِّحلة الحجيّة لدى أعلامِ الجزائر العثمانية:

أبدعَ الجزائريون ـ على غرار أتراهِم المغاربة ـ في تدوين رحلاتهم إلى الحجاز خلال العهد العثماني (1518 ـ 1830م)، وتبلورت عطاءاتُهم فيما كتبه رحّالو القرن 12هـ/18 على وجه الخصوص، ولو قُدِّر لمعظمهم العودة إلى الجزائر المحروسة وتدوين يومياتهم ومشاهداتهم في كتبٍ مخطوطةٍ لَتشكَّل لنا إنتاج رحلي ضخم، ولَنَافَسْنا به المغاربة[1]. ومن تلك الرحلات الحجازية المرجعية الرائدة ـ آنذاك ـ على سبيل الذكر لا الحصر: رحلة ابن أبي محلي الساوري (داراً وقراراً) السجلماسي (إقباراً) سنة 1001هـ/1593م، ورحلة أبي العباس أحمد المقَّري التلمساني سنة 1028هـ/1619م، ورحلة عبد الرحمن المجاجي سنة 1063هـ/1653م، ورحلة الأسير جوزيف بتس (الحاج يوسف) سنة 1091هـ/1680م، ورحلة ابن عمار الجزائري سنة 1166هـ/1752م، ورحلة الحسين الورثِلاني سنة 1179هـ/1766م، ورحلة الفُلاني القبلاوي سنة 1183هـ/1769م، ورحلة عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي سنة 1188هـ/1774م، ورحلة إبراهيم المُصعَبي اليسجني سنة 1196هـ/1782م، ورحلة أبي راس الناصري المعسكري سنة 1204هـ/1789م، وأخيراً رحلة عبد القادر بن عمر (أو عومر) المهداوي التواتي سنة 1232هـ/1817م، وهي محلُّ الدراسة في هذه الورقة.

هناك نوعٌ آخر من الرّحلات الحجازية الجزائرية وهي الرحلات "الافتراضية"، أي التي صنَّفها أصحابُها لأجل النصيحة وتوجيهِ الحجاج إلى ما يُسهِّل عليهم سفرهم إلى الحجاز، وذلك من منطلق

[1]- أبو القاسم سعد الله، 1998م، ج02، ص382.

شوقِهم إلى زيارة الحرمين الشريفين، وكذلك بحكم ما اكتسبَه بعضُهم من خبرات في رحلات سابقة إلى الحجاز، ومعظمُ هذه الرحلات تمَّ نظمُه شعراً، لمواءمته لحملِ معاني الشوق والزيارة. ومنها:

ـ رحلة ابن مسايب التلمساني في القرن 12هـ/18م[2]؛ نظمَها صاحبُها بلسان الشعر الملحون، وأسدى لمن يرغب في الحج من الجزائريين وغيرهم جملة من التوجيهات المتعلّقة بالمحطات التي كان ركبُ الحج يتوقَّف بها، وما يعزم عليه حينها الحاج الذي أشار إليه ابن مسايب مجازا بلفظ "الطير" أو "الورشان".

ـ الرحلة العامرية سنة 1152هـ/1739م؛ لمحمد بن الحاج بن منصور العامري التلمساني، وهي قصيدة رائقة المعنى رغم بساطةِ ألفاظها وغلبةِ اللغة الدارجة عليها، تذكُر، بل تُفصِّلُ في أبسط اللوازم والمعدَّات التي يحتاجها الحجاج في طريقهم، وتبيّن أسماء منابع الماء المشهورة من الجزائر إلى الحجاز[3].

ـ رحلة ولد سيد الحاج القبلاوي التيدكلتي مطلعَ القرن 13هـ/19م؛ وهي قصيدة شوقية شفهية، لأنَّ صاحبَها نوى الحجَّ وزيارةَ قبر المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلاَّ أنَّ حالَه لم يُسعفهُ لذلك، فنظَمَ رحلته المأمولة شعراً ملحوناً، صوَّر من خلاله محطاتها المعهودة لدى الحجاج، ابتداءً من منطقة تيدكلت بالجنوب الجزائري، إلى غاية البقاع المقدسة، اعتماداً على الرواية والسماع.

ذلك هو حال من ارتحل وسجّل رحلتَه توثيقًا وتأريخًا من أعلام الجزائر العثماني؛ لم يبتغوا زيارة الحجاز للسياحة أو المشاهدة الجغرافية، بل كان غرضهم معاينة تلكم الأرض الطاهرة التي تضمّ تاريخ الوحي والدعوة والأمّة الإسلامية، والتبرّك بترابها وهوائها، ومن ثَمَّ تسجيل عواطفهم المتأجّجة لرؤية الحجاز، وحفظه مرجعًا أمينًا لمن يأتي بعدهم[4]. والشيخ عبد القادر بن عمر المهداوي التواتي الجزائري واحد من هؤلاء الجزائريين، لم يشذّ عن مجتمعهم الرحلي المعطاء.

---

[2]- نشرَ المفكِّر الجزائري محمد بن شنب نصَّ هذه الرحلة كاملاً بالمجلة الإفريقية La Revue Africaine، مع تعليقٍ وافٍ عليها وعلى مؤلِّفها. يُنظر:

Ben Messaib, 1900, p275.

[3]- محمد المنوني، 1953م، ص89.

[4]- أبو القاسم سعد الله، 1998م، ج02، ص387.

3. التعريف بالشيخ عبد القادر بن عومر المهداوي:

هو عبد القادر بن عمر (أو عومر بدل عمر كما تمَّ رسمُه في أغلب المصادر) بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني المهداوي التواتي، وُلد أواخر القرن 12هـ/18م ونشأ بقصر تِنلان من بلاد توات (أدرار حاليا)، ثمّ انتقل رفقة والده إلى قصر قريب منه يسمى قصر المهدية[5]. فالمؤلِّف سليلُ أحد أهمِّ بيوتات منطقة توات في العهد العثماني، إنّه البيت التِّنِلاني المعروف في الصّقع التواتي وجواره، بمدرسته الزاوية العامرة التي كان يفد عليها الطلّاب والشيوخ، والتي خرّجتْ علماءَ أفذاذًا من أمثال: عمر بن عبد القادر وعبد الرحمن بن عمر وعبد الرحمن بن إدريس والبكري بن عبد الرحمان وغيرهم. رغم تلك الشهرة للأسرة التي ينتسب إليها الشيخ عبد القادر إلّا أنّ ترجمته المؤلف وأخباره تكاد تكون نادرة، لولا بعض الإشارات في رحلته التي بين أيدينا، والتي ينسب فيها نفسه إلى زاويتهم بالمهدية.

إنّ زاويةَ "تِنِلان" هي أصلُ المؤلف ومنشؤه؛ وهي التي اشتهرت أولًا بتنظيم أمور الحج[6]، ثمّ تفرَّعتْ عنها زاوية "المهدية"، التي انتسب إليها، والتي خرج منها الركب في أحد المواسم، وفيهم الرحَّالة عبد القادر المهداوي، حيث عبَّر عن ذلك الانتماء قائلًا: ".... وكنَّا خارجين يوم الاثنين بعد أن قضينا جميع الوطر، وما وهنَتْ قوّةُ عزائمِ أهلِ الركب... من زاويتنا المهدية"[7]. وهو ركب صغير في منطلقه، يتضاعف عدد أفراده في محطة أقبلي من بلاد تيدكلت، بدءًا بزاوية سيدي أبي الأنوار التنلاني، الذي وسمَه الرحالة عبد القادر المهداوي بعبارة: "ابن عمّنا"، كما أخبر أنّه زار في بلدة "أقبلي" ابنَ شيخه العلّامة سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي محمد بن سيدي عبد الرحمن بن عمر التنلاني لأنه توفي هناك وقبره مشهور[8]، فالشيخ المذكور سيدي عبد الله شيخ الرحالة عبد القادر، وجدّه عبد الرحمن التنلاني (ت1189هـ/1775م) صاحب رحلة حجيّة محفوظة سبقت هذه الرحلة، وهم جميعًا ينتمون لنفس الأسرة العلمية التنلانية.

---

[5]- مريم بخدا، 2013/2012م، ص48.

[6]- المهدي البوعبدلي، 2013م، ص152.

[7]- عبد القادر بن عومر المهداوي التواتي، مخطوط، و04.

[8]- المصدر نفسه، و11.

هناك إشارة هامّة إلى منصبٍ جليل قد يكون عبد القادر المهداوي (التنلاني أصلًا) شغلَه، وهو منصب إمارة أو مشيخة ركب الحجّاج، حيث ورد في ختام الرحلة هذا الوصفُ من طرف ناسخها: " ... الفاضل شيخ الأركاب الحاج عبد القادر بن العلاّمة السيد عمر التنلاني"[9].

وأغلب الظنِّ أنّ صاحبَنا المترجَمَ له هو نفسُه الشيخ عبد القادر بن أبي حفص "عُمر" صاحب التصنيف ذائع الصيت بالبلاد التواتية المسمّى: "الدّرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية"[10]، أي أنّ مؤلِّف الرحلة التي بين أيدينا ومؤلِّف مخطوط "الدرة..." المذكور هما شخصٌ واحدٌ، لسببين وجيهين:

ـ أولهما: نسبة المؤلّف "المهداوي" لقصر المهدية، وشروعه في مستهلّ ذكره لمشايخ توات بجدِّه البعيد أحمد بن يوسف التنلاني العثماني الأموي[11].

ـ ثانيهما: بحكم تطابق النعوت والأسماء، وكذا السَنة التي ألّف فيه تصنيفه، وهي سنة 1250هـ/1834م، ومن ترجم لهم فيه، قياسًا إلى سنة وفاته المتأخّرة بقليل.

كما وجبَ التنويه إلى عدم الخلط بين عبد القادر بن عومر صاحب الرحلة وبين سابقِه في العصر وبَلديّه التواتي وسَمِيّه: "عبد القادر بن عومر" المتوفَّ سنة 1121هـ/1709م، صاحب الزاوية المنسوبة إليه في بلاد توات المسمّاة: زاوية سيدي عبد القادر بن عومر (المعروفة اليوم باسم "فنوغيل")[12].

4. تقديمُ المخطوطِ ووصفُه:

تُشير العديد من الدلائل أنَّ الشيخ عبد القادر بن عمر (أو عومر كما أسلَفنا) المهداوي هو المؤلِّف الرئيس لهاته الرحلة الحجية التي بين أيدينا، من ذلك ما استهلَّ به الشيخُ رحلته، عند ذكره لزاويتهم بقصر المهدية، وهي الزاوية التي أسَّسها والدُه بعد انتقالهم إليها من قصر تِنلان الأصل، ومنها تسميته لبعض

---

[9]- المصدر نفسه، و48.

[10]- ظلَّ هذا التصنيف مخطوطًا محفوظًا بخزانة الوليد بن الوليد، بقصر أبّا عبد الله بأدرار، إلى أن تمَّ تخريجُه وتحقيقُه مؤخَّرًا في إطار مشروع بحث تكويني PRFU برئاسة الأستاذ مبارك جعفري، بجامعة أدرار.

[11]- عبد القادر بن (أبي حفص) عمر (المهداوي) التنلاني، مخطوط، و02.

[12]- يُنظر ترجمة هذا الأخير ومَن ذُكِر قبله من علماء تِنلان في: عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري، 2013، ص208.

أسلافه وأبناء عمومته المقبورين في بعض القُرى التي مرَّ عليها الرّكب، والأكثر إثباتًا من ذلك جميعِه هو حديث ناسخ الرحلة ـ كما ذكرنا من قبل ـ الصريح عن هوية صاحب الرحلة، ونعته إيّاه بأنَّه كان شيخًا من مشايخ ركب الحجّ التواتي.

رغم أهمية مخطوط رحلة الشيخ عبد القادر المهداوي الحجازية إلا أنَّه ـ مع الأسف ـ لم يسلَم من عوادي الزمن ونوائبِه، فلا تتوفَّر حاليًا سوى نسخة وحيدة منه في إحدى الخزائن الخاصة بولاية أدرار، منسوخة بدورها عن المخطوط الأصلي. وهي نسخة تحتاج إلى عناية وترميم، إذْ بالكاد تتمكَّن من تبيُّنِ بعض كلماتها وسطورها. خاصة في أوراقها الأخيرة. وقد كُتبت بخطٍّ مغربي بحِبرٍ أسود، مع تمييزِ عناوين فصولها بخط كبير بلونٍ مغاير. ولولا أنَّ الناسخ اهتدى إلى تدوين هذا النص الرحلي بخطٍّ كبير نسبيًا، وجعلَ متنَه مضبوطاً في الوسط مع تجدُّد الصفحات، لَضاعَ جزءٌ كبيرٌ منه بحكمِ تآكل الحواف أو اختفاء حِبرها، في معظم أوراق المخطوط من جميع الجهات.

لم يُصرّح الشيخ عبد القادر المهداوي بعنوانٍ بذاتِه لرحلته الحجازية، بل ترك الأمر على سجيّته، رغم أنَّه حرص على تسجيل بعض العناوين الرئيسية المفصلية، على منوال ما هو حادثٌ في أشهر الرحلات المغربية، من قَبيلِ: "ذِكرُ كذا".... "وصولُنا إلى كذا".... وهكذا دواليك. غير أنَّ الناسخ وضعَ للرحلة عنوانًا في ختام النص، حيث عقَّبَ بالقول: "تمَّت الرحلة المكيّة والزورة المحمديّة للشيخ الفاضل.... "[13]، فيما يبدو أنّه استنتاجٌ لمحتوى الرحلة وتبجيلٌ لمقامها من طرف الناسخ، لَمَّا وجد غايتَها ومنتهاها هي مكّة المكرمة وزيارة الرسول ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ.

1.4 المقاساتُ الشكلية:

يتوزَّع مخطوط رحلة المهداوي على ثمانٍ وأربعين (48) ورقة (أي 96 صفحة) من الحجم المتوسط، ويصلُ معدّل عدد السطور في الورقة الواحدة إلى اثنين وعشرين (22) سطرًا، بينما تبلغ مسطرة النص ما مقداره ثلاث عشرة (13) كلمة في المتوسط. وقد كُتب النص بمقياسه 13×20 على ورقٍ بمقياس: 17×24، على أنّ المتن يتوسّط الصفحة من الجهات الأربع، كما نوّهنا آنفًا.

[13]– عبد القادر المهداوي، مخطوط، و48.

دوّن نص رحلة عبد القادر المهداوي على الورق المعتاد المتوفّر في تلك الفترة، وافتقدَ لغلافٍ مقوًّى أو نحو ذلك، مع بعض الشروح والتذييلات من ورقة إلى أخرى، وكذا بعض التخريجات من طرف الناسخ، لكنها تُقرأ بصعوبة بالغة، نظرًا لحدَّتها وصِغر حجمها وكتابتها على الحواف المطموسة أصلًا.

2.4 مقدّمة المتن الرحلي:

جاءت مقدّمة الرحلة معتادة في هذا النوع من النصوص الرحلية، الجزائرية خصوصًا والمغاربية عمومًا، حيث افتتحَ المؤلِّف رحلته بمقدمة بليغة شملت كالمعتاد الحمدلة ثم التصلية، وزيَّنها بالكثير من صور البيان وأساليب البديع، ما ينمّ عن براعته في الاستهلال. يقول في مطلع فقراتها: "الحمد لله الذي جعل الرحلة إلى بيته الحرام، ومقام حبيبه خاتم الأنبياء من أفضل ما يُقتفى وأجلِّ ما يرام. دعا عباده على لسان خليله إلى ضيافته عند البيت العتيق، ثم وفّق منهم مَن شاء إلى إجابته فأتوه رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق..." [14].

ثمّ خصَّص المؤلّف أزيد من ثلاث صفحات لتبيان فضل الحجّ إلى البيت الحرام وزيارة قبر المصطفى عليه السلام، موظِّفًا لأجل ذلك الآيات القرآنية الحاضّة على ذلك، الآمرة بالمبادرة إلى الحج، وكذا الأحاديث النبوية الشريفة المبيّنة فضل ذلك وأجره.

5. ميزاتُ مسار ركب الرحالة المهداوي: كان الخروج إلى الحجّ في وقت مبكّر كالمعتاد، حيث غادر الركب الذي ضمّ المهداوي ورفقته منطقة توات أقصى الجنوب الجزائري يوم الاثنين الأخيرة من شهر جمادى الثاني السابق لشهر رجب[15]. وشبيهٌ بذلك التوقيت خروج ركب الحج الذي ضمّ ـ في أحد المواسم ـ أهل الشمال الجزائري وفيهم الرحالة الحسين الورثلاني من منطقة القبائل الصغرى، في ركبٍ كبيرٍ جدا، مع بداية شهر جمادى الثاني أيضًا[16].

---

[14]– عبد القادر المهداوي، مخطوط، و02.

[15]– نفسه، و04.

[16]– ذلك توقيت تقريبي، استنتاجًا من كون الركب الذي انطلق من نواحي بجاية وسطيف عرَّج جنوبًا، فوصلَ مدينة بسكرة في شهر رجب، بعد أيام قضاها في الطريق. يُنظر: الحسين الورثلاني، 2011م، ج01، ص213.

أمَّا الطريق التي عبَرَها ركب المهداوي فهي الطريق السفلية، التي تمرّ على إقليم تيدكلت أسفل بلاد توات. وهي طريق جنوبية مُوغِلة في الصحراء، واقعة على خطٍّ مستقيم يوصِلُ الحجّاج إلى إقليم فزّان جنوب ليبيا. ينطلق فيها ركب الحج من بلدة "تيمي" عاصمة توات، لينزل بمدينة تمنطيط العريقة، ثمّ يزور الزوايا الموزَّعة على طول الطريق بمثابة محطات. وهي تواليًا: زاوية سيدي عبد القادر، زاوية الجديد، زاوية سيدي علي بن حنيني، زاوية الشيخ ابن عبد الكريم المغيلي. ومن هذا المنزل الأخير يُشرِّق الركب قاصِدًا بلاد تيدكلت، في فضاءٍ واسعٍ يقطعه في يومين ونصف، ليصل إلى زاوية أبي الأنوار التنلاني (زاوية مولاي هيبة) للراحة، ثم يقصدُ زاوية حينون بأولف، وبعد مسيرة يومٍ يصل إلى بلدة أقبلي.

ومحطة أقبلي الأخيرة هي مُلتقى حجّاج الجنوب الجزائري بحجّاج بلاد التكرور، فهي محطة مفصلية، يلتئِم فيها ركب الجزائر بركب أهل "السودان". ومنها ينتقل إلى بلاد اينغر، وصولًا إلى مدينة عين صالح، التي يتلقَّى أهلُها الركب رجالًا ونساءً، ويفرحون به غاية الفرح والسرور[17]. وصولًا إلى إقسطن أقصى تيدكلت. يقول الرحالة القيسي في ذلك: "ثم انتقلنا لبلاد كسطن، وهو مدشر منحرف عن الطريق الجادّة، قصدناهم لرغبتهم في التوجُّه معنا إلى الحج"[18].

وهذه الطريق البعيدة عن معظم حجّاج الجزائر يسمّيها الحجاج الوافدون من بلاد التكرور بالطريق الوسطانية[19]؟ ربما لأنَّها تتوسط طريقَ حجِّ الأفارقة وطريقَ الهضاب المشهورة. ومن مدينة عين صالح قاعدة تيدكلت إلى غاية مدخل إقليم فزّان جنوبي ليبيا تنقطع الأخبار، ويُواجه الركب صحراءَ قاحلة وهضابًا صخرية... "لا تنفع فيها التفاتاتٌ إلى الوراء، ولا يهتمُّ المرءُ فيها إلَّا بنفسه وراحلته وعصاه"[20]! وما عدا ذلك فإن الحجّاج اضطروا أحيانًا لحفر الآبار في طريقهم بأيديهم؛ من ذلك بئرٌ حفرها حجاج مغاربة بمعيةِ حجاج جزائريين في الطريق الجنوبية الصحراوية. يقول عنها الرحالة القيسي: "... ليس فيه إلا بئر واحدة،

---

[17]- عبد القادر المهداوي، مخطوط، و و: 10-12.

[18]- القيسي السراج، 1970م، ص ص: 28-30.

[19]- الفلاني القبلاوي، مخطوط، و02.

[20]- عبد القادر المهداوي، مخطوط، و12.

وحفر أهل الركب بئرًا أخرى، أقَمْنا فيها يومًا لرعي الجمال"، كما اشتهرت بعض تلك العيون المائية المحفورة باسم "عوينات الحجاج"[21]. ورغم ذلك فقد تميّزت هذه الطريق الصعبة بعبور أركاب الحج في كلِّ موسم، كما ألِفَتْ من قبلُ القوافل التجارية العابرة للصحراء.

ارتحل الشيخ عبد القادر ومن معه بعد عبور الصحراء الشرقية الجزائرية إلى إقليم فزّان الليبي، وهي محطة خاصة بالحجّاج الوافدين على الأراضي الليبية من طريق الحج الجنوبية الصحراوية. تحوي عدّة قُرى أشهرها: مرزق وزويلة وغات، يصِلُ إليها الركب الآتي من أقبلي وعين صالح بعد قرابة شهرين من المسير[22]. ونظرا لصعوبة المسالك المتبقية كان لزامًا عل الحجاج انتظار قدوم قافلة كبيرة محمَّلة بالإبل من مدينة طرابلس من أجل الشراء أو التبديل، استعدادًا لِما هو آت[23]. أما مدينة غدامس الواقعة قرب مثلث تلاقي الإيالات الثلاث: طرابلس الغرب والجزائر وتونس، فقد كانت ملتقى القوافل التجارية في العصور السابقة، وهي محطة استثنائية نادرة للركب القادم من الصحراء الجزائرية، على غرار ركب أهل توات.

إثرَ ذلك سارت القافلة باتجاه مفازة برقة أي المقطع الشرقي من الأراضي الليبية، الممتد من الساحل إلى أقصى الصحراء، وهو الحدُّ الفاصل بين مصر وإفريقيَّة، حيث لا يُواجِهُ الحجاجُ فيه إلا السَّبَخات والمفَاوِزَ والفَلَوات[24]. وبذلك اشتهر إقليم برقة لدى الحجاج، رغم وجود مدن آهلة في شماله مثل: أجدابيا وبني غازي (بنغازي) ودرنة وطبرق. والملاحظ على نصّ رحلة المهداوي إيجازه في ذكر مستجدّات محطات ومنازل المقطع الأخير بين مصر والحجاز، المعروف تاريخيا باسم "درب الحجاز"، بل واقتباسه المباشر في وصف تلك المناهل من رحلات سابقيه.

في ختام رحلته؛ أبدى الشيخ عبد القادر المهداوي تأثّره وتأثّر مرافقيه، من أهل توات خاصّة وبقية الحجاج عامّة، بمفارقة تلك المعاهد المباركة، حين يعزمون على العودة إلى ديارهم... فهناك يستصغِرون ما

---

[21]- القيسي السراج، 1970م، ص31.

[22]- الفلاني القبلاوي، مخطوط، و02.

[23]- القيسي السراج، 1970م، ص33.

[24]- محمد الحُضَيْكي، 2011م، ص89.

قاسَوه في طريقهم من المحن والشدائد، في جنْبِ ما حصل لهم من النعيم والفوائد، سائلين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ "لا يجعله آخرَ العهد بتلك الأماكن المعظمة والمشاعر المحترمة"[25] ـ حسبما جاء في دعاء وابتهال الشيخ المهداوي التواتي ـ

6. أهميةُ رحلة المهداوي وتميُّزها:

من خلال استقراء هذا النص الرحلي الذي بين أيدينا يتبيّن لنا مدى إدراك صاحبه لمجمل النصوص الرحلية السابقة لعهده ولرحلته؛ فقد حظيت المصادر التي استقى منها المهداوي موادَ رحلتِه الحجازية بتقدير كبير، نظرًا لمكانة مؤلّفيها وسبقِهم في ذلك الفنّ. غيرَ أنّه يُعابُ عليه الإفراط في الاقتباس من متون الرحلات المغربية الشهيرة، مع الإشارة إليهم أحيانًا وتجاوز الأمانة العلمية أحيانًا أخرى، على غرار رحلة أبي سالم العياشي وكذا رحلة ابن ناصر الدرعي، أو "الرحلة الناصرية"، في القرنين 11هـ/17م و12هـ/18م على التوالي، حيث شرع في نقل بعض فرائدها وفوائدها، في مستهلّ رحلته، من ذلك استدلاله بأبيات ذكرها الدرعي وأوصى بها لمن ضاقت عليه السُّبُل، وقد كان الشيخ عبد القادر المهداوي في ضيق وهمٍّ حينها، بسبب قلَّة اليد حين عزمَ على الحجّ، منها[26]:

إليكَ رسولَ الله أشكو نوائبًا مِن الدَّهر لا يقوَى بها مُتحَمَّلِي

وإنِّي لأرجو أنَّها بكَ تَنجَلِي لأنَّكَ في جاهٍ وحصنٍ ومعقلِ

بما أنّ الرحلة مصدرٌ مهمٌّ في تأصيل بعض الأحداث السياسية المرتبطة بتاريخ توات المحلي، أو بالمستجدات السياسية التي شهدها مجالُها المتسع جغرافيًا، فقد أفادت رحلة الشيخ المهداوي كثيرًا في هذا المجال، وخلَّفت لنا معلومات هامّة عن جوانب من زوايا مختلفة لِما كان يُحيط بالرحلة إلى الحجّ في مطلع القرن 13هـ/19م؛ من ذلك أنَّه حدثَ في موسم حجّ 1232هـ/1817م أنْ تأخَّر هذا الركب التواتي الجزائري في الوصول إلى مكةَ المكرمة إلى وقتٍ ضيّق حرِج جدًا، وهو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة،

[25]– عبد القادر المهداوي، مخطوط، و61.

[26]– المصدر نفسه، و05.

وذلك بسبب مُعيقات الطريق[27]، وكاد يفوتُ الحجّاجَ موعدُ الحج بعد شهور من التعب والضنك في الطريق، لولا لطفُ الله عزَّ وجلَّ[28].

ومنها أنّ الحجّاج جميعًا كانوا يستبشرون بوصولهم إلى محطة "ينبوع" الواقعة في درب الحجاز بين مصر ومكّة المكرمة، ذلك لأنّه كانت تُقام فيها أسواق كبيرة، يُباع فيها غالب ما يحتاج إليه الحاج، وفيها يطَّلِع حجاج الركب التواتي الجزائري ومن رافقهم في الطريق على أخبار الحرمين الشريفين[29]. ومنها أنّ الركب الجزائري أصبح يتجاوز سُنَّة المبيت بِمنى ليلةَ التاسع لظروف أمنية، وبأنَّ جميع أركاب الحج الأخرى لم تعُدْ تنزل بها، بل تذهب إلى صعيد عرفات مباشرة[30].

وهناك في صعيد عرفات يجتهد الحجاج في الدعاء والاستغفار، ويتأكدون من صحّة نُسك وقوفهم بعرفة الركن الأعظم في الحج، ومُطابقته للسُّنَّة. يقول الرحالة المهداوي عن ذلك الموضع: "... ووقفنا على إبلنا اغتنامًا لبركة سُنَّة نبيّنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم نزلْ في موضعنا ذلك واقفين مستغفِرين مكبِّرين مهلِّلين داعين، إلى أن غربت الشمس وتحقَّقنا أنَّا أخذنا جزءًا من الليل"[31].

من القيّم الاجتماعية التي وردت في مواضع عدّة من رحلة المهداوي دعوته الحاجَّ الجزائريَّ الرَّاغبَ في الحج آنذاك لأنْ يتحلَّى بآداب السفر إليه، وذاك بأنْ يجدِّدَ التوبة والاستغفار، ويردَّ المظالم والودائع إلى أصحابها، ويقضيَ الديون المترتِّبة عليه، ويُخلِّفَ وراءه النفقة لكلِّ من تَلزَمهُ نفقته إلى وقت رجوعه من الحجاز، ويستصحب من المال الحلال الطيِّب ما يكفيه ذهابًا وإيابًا، ويُكثر من الأذكار والدعاء.

---

[27]- رغم أنّ صاحب الرّحلة لم يُشِر في متنها إلى مكامن إعاقة الركب؛ لكن يمكن استنباط بعض عواملها بناءً على تاريخها (1817م). فمِن ذلك تطورات الأوضاع السياسية والأمنية في محطّات طرابلس الغرب الجنوبية في ظلّ صراع النفوذ مع الأسرة القرمانلية، وكذا التحوّلات السياسية والعسكرية في الحجاز، في سياق الصراع العثماني مع الدولة السعودية الأولى.

[28]- عبد القادر المهداوي، مخطوط، و54.

[29]- المصدر نفسه، و44.

[30]- نفسه، و55.

[31]- نفسه، و56.

تضمّن المخطوط أيضًا قيمة متعلقة بالصلح وردّ المظالم وجبر الخواطر، وهي أن ركب المهداوي أبى إلَّا أن ينتظر وصول ركب قورارة (تيميمون) في محطة عين صالح، بعد سنوات من الجفاء والخلاف، وقد أشار الرحالة عبد القادر المهداوي إلى ذلك التلاقي الحادث بعين صالح قائلاً: "... وأقمنا هناك تسعة أيام، عطَّلَنا فيها ركبُ قورارة، كنَّا مفترقين وصالحَونا... "[32]. من جهة أخرى عرضَ أمير حجّاج قبائل صعيد مصر على الركب التواتي ـ بعد انقضاء الحج ـ مرافقته في درب الحجاز، فقبِل الحجّاجُ، وأكرمَهم المصريون طول الطريق[33]. وذلك برغم ما اشتُهر من وجود الشحناء والشنآن، بين الركبين الكبيرين: الركب الجزائري والركب المصري الرسمي.

أمَّا ما تفرّد به الرحّالة عبد القادر المهداوي دون نظرائه من الرحالين التواتيين، وأظهرَ إبداعًا فيه؛ فهو رسمُه التخطيطي للحجرة النبوية الشريفة بالمدينة المنورة ـ على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ محدِّدًا فيه الجهات الأربع، وارتفاع "حيطان" الحجرة الشريفة، ومُشيرًا إلى موقع "العازل الفضّي" المقابل للوجه الشريف[34].

6. خاتمة:

يمثّل مخطوط رحلة الشيخ عبد القادر بن عمر المهداوي التواتي إلى الحج عام 1232هـ/1817م قيمة نوعية مضافة إلى مدونة الرحلات الحجازية التواتية خاصّة، والجزائرية في أواخر العهد العثماني عامّة، إذ لم يكن مجرد وصف لمناسك الرحلة أو تسجيل للمسالك والمنازل، بل تجاوز ذلك إلى توثيق مستجدات سياسية واجتماعية مهمة، منها تأخر الركب الجزائري في الوصول إلى مكة المكرمة بسبب معيقات الطريق، والعلاقات المتقلبة بين الركب الجزائري والركب المصري، وجهود الإصلاح بين القبائل في محطة عين صالح. كما تميزت هذه الرحلة بتفرُّد صاحبها بذلكم الرسم التخطيطي الدقيق للحجرة النبوية الشريفة، المدرج

---

[32]- عبد القادر المهداوي، مخطوط، و12.

[33]- نفسه، و42.

[34]- نفسه، و70.

ضمن صفحات النص، وهي سمة قلّما نجدها في الرحلات التواتية والجزائرية المعاصرة لها، مما يعكس مستوى الملاحظة والدقة العلمية لدى الرحالة المهداوي.

كما أظهرت الدراسة أن الشيخ عبد القادر المهداوي ينتمي إلى الأسرة المهداوية سليلة الأسرة التنلانية العريقة التي كان لها حضور بارز في تنظيم شؤون الحج بإقليم توات، وأن رحلته هذه تأتي في سياق تقليد عائلي في تدوين الرحلات، إذْ سبقه في ذلك قريبُه عبد الرحمن بن عمر التِّنِلاني. وقد أبرز النص مدى تأثّر المؤلف بالرحلات المغاربية الكبرى التي سبقته، خاصة رحلة العياشي والدرعي، غير أن ذلك لم يحُل دون إضافاته الذاتية القيّمة، سواء على مستوى تسجيل الأحداث المعاصرة أو على مستوى تقديم نصائح عملية للحجاج تتعلق بآداب السفر وأهمية الاستعداد المادي والروحي.

بناءً على ما انتهى إليه هذا البحث فإنّه يُرجى الأخذ بالتوصيات التالية:

ـ ضرورة الاهتمام بتحقيق ونشر هذا المخطوط بوصفه مصدرًا أصيلًا يثري المكتبة التاريخية الرحلية، فهو مخطوط قيّمٌ، جديرٌ بالدراسة المستفيضة والتحقيق المتحرّي، قمينٌ بالنشر والإشاعة على عموم المهتمِّين بهذا النوع من الأدب التاريخي.

ـ تشجيع الدراسات المقارنة بين هذه الرحلة والرحلات الجزائرية والمغاربية الأخرى الذائعة في العهد العثماني وغيره، بهدف بناء صورة شاملة عن طرق الحج وأحواله وتنظيمه.

ـ التوسّع في البحث عن مظانّ محتملة لمخطوطات الرحلات الحجازية المحفوظة في الخزائن الخاصة بمنطقة توات والجنوب الجزائري عامّة، لما تزخر به من مادة مهمّة لم تنل حظَّها من الدراسة والتحقيق بعد، وإشراك المؤسسات الجامعية والبحثية في ذلك المسعى، وعلى رأسها المركز الوطني للمخطوطات.

7. قائمة المراجع:

01. البوعبدلي، المهدي، (2013م)، التعريف بالكتب والمخطوطات، جمع وإعداد: عبد الرحمن دويب، ط01، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.

02. المهداوي التواتي، عبد القادر بن عومر، (مخطوط)، الرحلة إلى الحج، خزانة الشيخ أحمد بن حسان، قصر عريان الراس، تسابيت، أدرار، الجزائر.

03. المهداوي التواتي، عبد القادر بن (أبي حفص) عمر، (مخطوط)، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، خزانة الوليد بن الوليد، قصر أبّا عبد الله، أدرار، الجزائر.

04. الحُضَيْكي، محمد، (دس)، الرحلة الحجازية، ط01، تحقيق: عبد العالي لمدبر، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط.

05. السراج، القيسي، (1970م)، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيّد الأعاجم والأعارب، د ط، تحقيق: محمد الفاسي، مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية، فاس.

06. سعد الله، أبو القاسم، (1998م)، تاريخ الجزائر الثقافي، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج02.

07. القبلاوي، الفلاني، رحلة الفلاني القبلاوي، (مخطوط)، خزانة مولاي عبد الله سماعيلي، زاوية كنتة، أدرار، الجزائر.

08. مقلاتي، عبد الله، وجعفري، مبارك، (2013م) معجم أعلام توات، منشورات الرياحين، الجزائر.

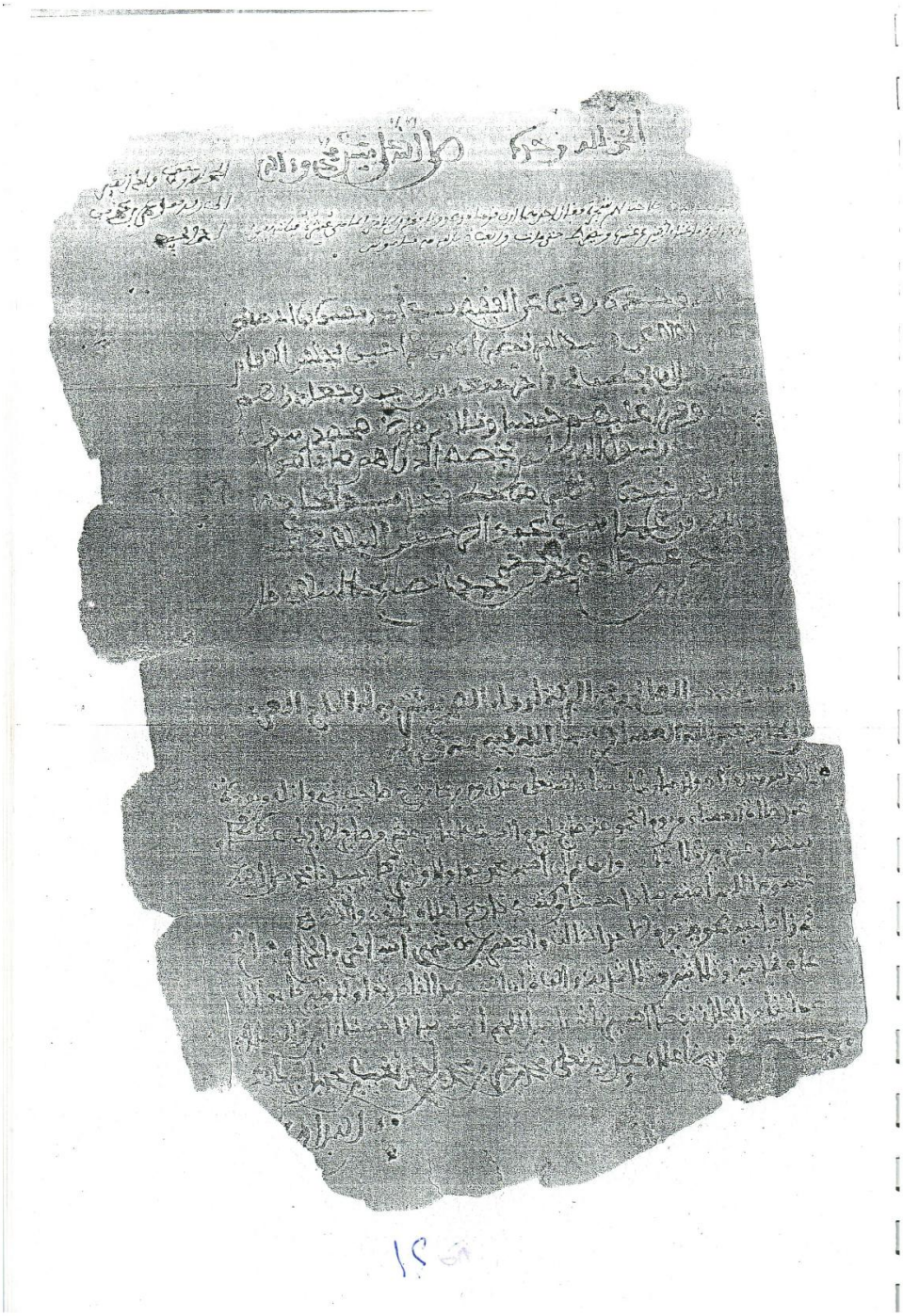
09. المنوني، محمد، (1953م)، من حديث الركب المغربي، ط01، مطبعة المخزن، تطوان، المغرب.

10. الورثلاني، الحسين، (2011)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار (الرحلة الورثلانية)، تعليق: ابن مهنّا القسنطيني، تقديم: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، ط خ، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج01.

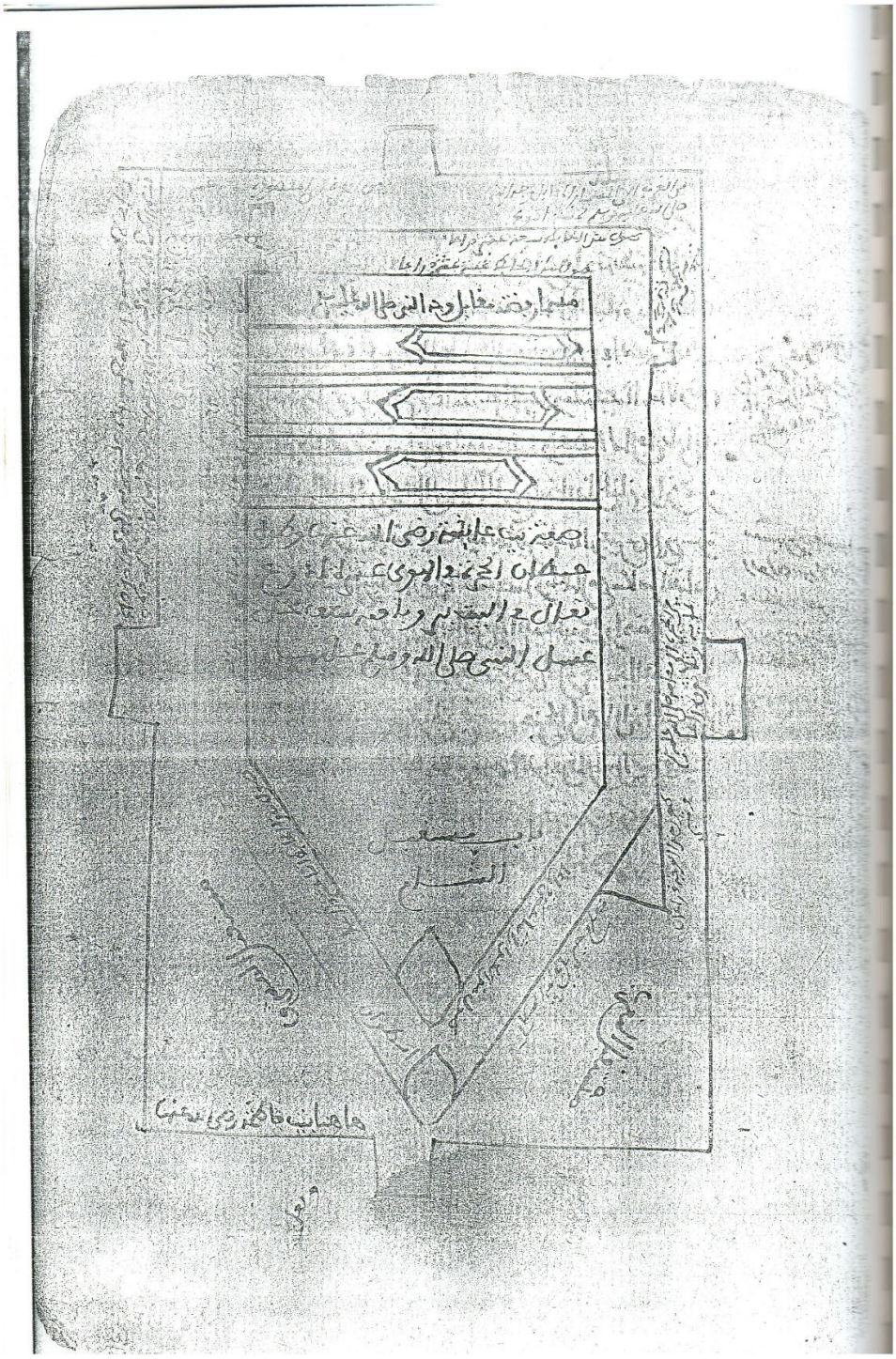
11. بخدا، مريم، (2013/2012م)، أعلام العائلة التنلانية ودورهم العلمي بإقليم توات خلال القرنين 11 و12هـ/17 و18م، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف: خير الدين شترة، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أدرار، الجزائر.

12. Ben Messaib, (1900), Itinéraire de Tlemcen a la Mekke, par: Mohamed Ben Cheneb, Revue Africaine, Alger, volume 44, pp: 261-282.

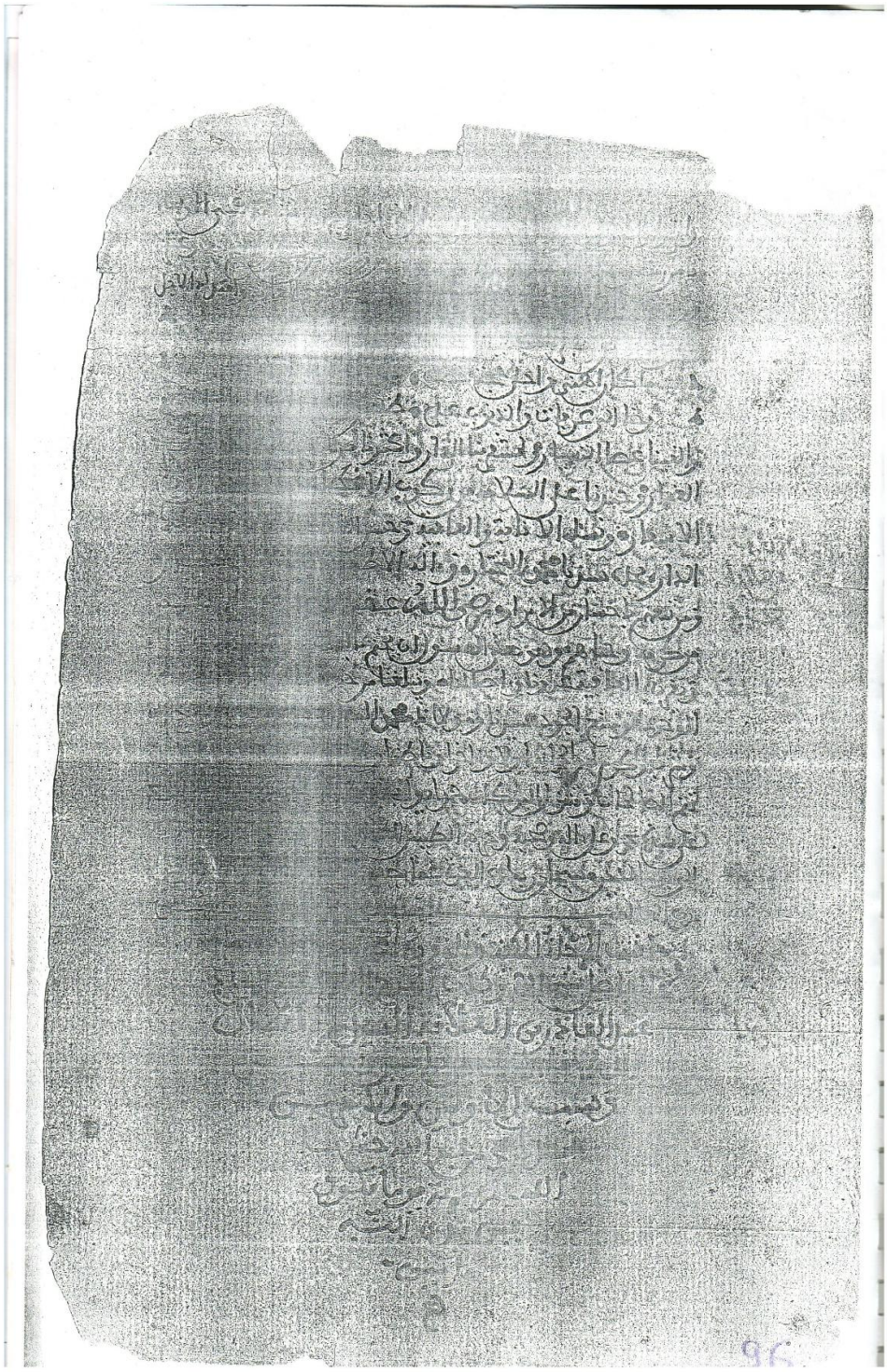
8. ملاحق:



الملحق رقم (01) الصفحة الأولى من مخطوط رحلة عبد القادر المهداوي



الملحق رقم (02) مخطّط الحجرة النبوية الشريفة في مخطوط رحلة عبد القادر المهداوي



الملحق رقم (03) الصفحة الأخيرة من مخطوط رحلة عبد القادر المهداوي